ثورة ابن أبي مَحَلِّي في المغرب
بين ادعاء الإصلاح والطمع في السلطة

د. فهد بن محمد السويكت
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

قامت الدولة السعدية في المغرب مع مطلع القرن العاشر عشر الهجري/ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وتعاقب على السلطة فيها ملوك عظام، كان أشهرهم على الإطلاق أحمد المنصور السعدي (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م -١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م)، الذي حكم في أعقاب معركة وادي المخازن ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م.

وبعد وفاته دخلت بلاد المغرب في حرب أهلية بسبب النزاع بين أبنائه على السلطة. وقد خلفه ابنه زيدان (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م - ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م) واستقر في عاصمة ملكهم مراكش. لكنه بالإضافة إلى ما واجه من نزاع مع إخوته وأبناء إخوته، قد واجه ثورات أخرى استغل أصحابها ضعف الدولة السعدية بعد وفاة المنصور.

إن من أشهر تلك الثورات التي واجهها السلطان زيدان ثورة أحمد بن عبدالله المعروف بابن أبي مَحَلِّي في عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م. التي ادعى من خلالها أنه يسعى إلى

الإصلاح حين عم الفساد أرجاء البلاد وعجز أبناء المنصور، في نظره، عن القيام بواجب الحسبة والجهاد، لاسيما وقد تنازل بعضهم طوعًا عن أجزاء من التراب الوطني للإسبان. فكانت ثورة ابن أبي مَحَلِّي ضد سلطة زيدان الشرعية تبدو في ظاهرها بأنها غيرة على حرمة البلاد والعباد وليس لصاحبها أطماع في السلطة. اعتمادًا على ما كان يؤكده صاحب الثورة لأتباعه. فهل كانت تلك هي حقيقة الثورة؟

تمهيد:

لقد انقلبت الظروف السياسية في المغرب بعد وفاة المنصور من حالة الاستقرار إلى وضع مضطرب. فكان من أهم نتائج تلك الوضعية المضطربة أن تفككت وحدة الدولة وانقسمت إلى مملكتين: مملكة مراكش ويتزعمها السلطان زيدان، ومملكة فاس بزعامة أخيه المأمون. إضافة إلى ذلك ظهرت قوى مناوئة وطامعة في السلطة هنا وهناك، خاصة في الجهات النائية عن الهيمنة المباشرة للدولة. واتخذ أغلبها الدين مطية لتحقيق أهدافها، إما كزوايا ذات صبغة صوفية، أو قوى متطلعة لملء الفراغ السياسي. رفعت كلها راية الجهاد دفاعًا عن ثغور البلاد المهددة من القوى المسيحية المتربصة.

من بين تلك القوى المناوئة، على سبيل المثال لا الحصر، الزاوية الدلائية في وسط البلاد(١)، والحركة

---

(١) انظر عن نشأة هذه الزاوية وتفاصيل أوسع عنها عند: محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، ١٩٦٤م.

السملالية(٢) في الجنوب الغربي، والمجاهد العياشي(٣)، والمورسكيون الأندلسيون الذين استقروا بجهة الرباط وسلا، وثورة ابن أبي محلي.

كل هذه الثورات والحركات المناوئة كانت من إفرازات وضع سياسي واحد، انطلق أصحابها من مبدأ الإصلاح الديني وتقريب وجهات النظر، مستغلين انقسام المغرب بين أبناء المنصور السعدي بعد وفاته.

نشأة ابن أبي مَحَلِّي وشخصيته:

أبو العباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن القاضي بن أبي مَحَلِّي ، يكنى جده بأبي مَحَلِّي، بفتح الميم والحاء واللام المكسورة المشددة بعدها ياء ساكنة. ولد بسجلماسة عام ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م، ينتمي إلى ذرية العباس بن عبدالمطلب(٤). ويقول الزياني إن بني العباس هؤلاء اشتهر نسبهم بسجلماسة، ويعرفون بأولاد ابن اليسع أهل زاوية

---

(٢) الحركة السملالية: نسبة لعلي بن محمد السملالي المعروف بأبي دميعة، اشتهر أمره في إقليم السوس، واتخذ مدينة إيليغ قاعدة له، وأسس بها زاويته عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٤م. انظر فهد السويكت: الدولة العلوية في المغرب ١٠٥٠-١٠٨٢هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود/ كلية الآداب، قسم التاريخ.

(٣) محمد بن أحمد المالكي الزياني الملقب بالعياشي: تزعم حركة الجهاد ضد الإسبان حوالي عام ١٠١٢هـ/١٦٠٤م. لمزيد من التفاصيل انظر: عبداللطيف الشادلي: الحركة العياشية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء، ١٩٨١م.

(٤) محمد الإفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، منشورات بردي، الرباط، نقلاً عن نشرة هوداس ١٨٨٨م، ص٢٠٠-٢٠١.

القاضي(٥). وقد اشتهرت عائلة ابن أبي مَحَلِّي بتوليهم أعمال القضاء، لذلك يعرفون بأولاد القاضي(٦).

أما سبب كنية جده بأبي مَحَلِّي، فقد أقر هو بنفسه بأنه يجهل سبب ذلك(٧). والمصادر التي بين أيدينا لا تجد غضاضة في تكنيته بأبي محلي أو ابن أبي محلي .

ويشير العياشي في رحلته إلى أنهم نزلوا في إحدى قرى بني عباس، التي كان منها ابتداء أمر ابن أبي محلي(٨).

ويبدو أنه قد بدأ تعليمه في إقليم سجلماسة(٩) الذي ولد ونشأ فيه. هذا كل ما نعرفه عن ابن أبي مَحَلِّي قبل أن ينتقل إلى مدينة فاس من أجل الأخذ بأسباب العلم والمعرفة.

أما عن انتقاله إلى مدينة فاس، عاصمة العلم والمعرفة، فتشير المصادر إلى أنه قد انتقل إليها عام ٩٨٠هـ، وأنه قد بقي فيها نحو ست سنوات، أي إلى أن حصلت غزوة وادي

---

(٥) أبو القاسم الزياني: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، ١٩٩٢م، ص٣٧.

(٦) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠١.

(٧) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج ٢، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص٣٢١.

(٨) أبو سالم العياشي: ماء الموائد، طبعة حجرية، تقديم محمد حجي، الرباط، ١٩٧٧م، ١٩/١. (قرى بني عباس بصحراء توات).

(٩) سجلماسة: مدينة تاريخية اندثرت الآن، أسسها بنو مدرار في أواسط القرن الثاني الهجري، وكانت نقطة تجارية مهمة بين المغرب والسودان. لا تزال أطلالها باقية بالقرب من مدينة الريصاني. انظر الصديق بن العربي: كتاب المغرب، الجمعية المغربية، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٢٢٨.

المخازن الشهيرة عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، ثم غادرها وتوجه نحو البادية، ولم يعد إلى فاس لاستكمال تعليمه إلا بعد نهاية الغزوة وتولي المنصور أمور البلاد⁽¹⁰⁾. وربما كان سبب خروجه من فاس يعود إلى موقف بعض علماء تلك المدينة من قضية تسليم العرائش للإسبان التي سيأتي ذكرها لاحقًا.

وعند خروجه من فاس إلى البادية عام ٩٨٦هـ، أكب على حفظ بعض الكتب، مثل الرسالة التي أتم حفظها في قرية كريكرة، ولذلك عندما عاد إلى فاس كان بارعًا في النحو، لكن رغبته كانت في الفقه⁽¹¹⁾. والرسالة المشار إليها ربما تكون رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

وفي فاس لازم شيخه أبا عبدالله محمد بن مبارك الزعري التستاوتي (ت ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م). وصحبه مدة ثمانية عشر عامًا، وأخذ عنه طريقته في التصوف قبل أن يوجهه شيخه نحو سجلماسة لتعليم أهلها وإرشادهم ، وكانت الطريقة التي اتخذها هي الجزولية⁽¹²⁾.

---

(١٠) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠١.

(١١) أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٦، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ص٢٧. وكريكرة لم نجد لها تعريفًا. وربما تكون هي تيغريغرة الواقعة جنوب فاس. انظر الحسن الوزان: وصف إفريقيا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٩هـ، خارطة مملكة فاس.

(١٢) الناصري: الاستقصا، ٢٧/٦؛ عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩١م، ص٤٩، ٨٠. (سيشار إليه لاحقًا: ابن أبي محلي... ورحلته). محمد بن مبارك: من رجال التصوف كان أميًا، خرج إلى =

ومن مشايخه أيضًا أبو العباس المنجور (ت ٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م)، وأحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م)، والشيخ سالم السنهوري(١٣) (ت ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م).

كان ابن أبي مَحَلِّي في أول أمره فقيهًا صرفًا، لكنه بعد ذلك انتحى طريق التصوف، وتحول من فقيه إلى صوفي، حتى ظهرت عليه علامات الولاية، فأقبل الناس لزيارته والتبرك به، وجاءته الوفود جماعات وفرادى وظهر صيته وعلا خبره، وأصبح مجلسه قبلة للزوار(١٤).

كان ابن أبي محلي حريصًا على أن يشتهر أمره ويذيع خبره، ولهذا ارتبط بكثير من علماء وقته بروابط متينة

= بوادي مراكش ينصح ويعلم واشتهر أمره، وأصبح له صيت بالمغرب فقصده الناس. انظر الإفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، مركز التراث الثقافي بالمغرب، الدار البيضاء، ص٥٠. أما الطريقة الجزولية فهي منسوبة إلى محمد بن سليمان الجزولي الشاذلي من أهل سوس. كان له أتباع يسمون الجزولية، وهي نسبة إلى جزولة من بطون البربر. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٥١.

(١٣) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٣؛ الناصري: الاستقصا، ٢٨/٦. أحمد بن علي المنجور: كان بحرًا في جل العلوم وله مشاركات كثيرة في التأليف والتدريس. انظر الصفوة، ص٤٣؛ أحمد بابا التنبكتي: الفقيه العلامة المشهور بكثرة مؤلفاته، أحضره المنصور السعدي من تنبكت إلى مراكش في عام ١٠٠٢هـ، وبعد وفاة المنصور سمح له بالعودة إلى بلاده. الصفوة، ص١١٤. الشيخ سالم السنهوري: نسبة إلى سنهور قرية من قرى مصر فقيه مالكي محدث. له مشاركات في علوم كثيرة. محمد القادري: التقاط الدرر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٨.

(١٤) الناصري: الاستقصا ٢٨/٦.

وحرص على أن يتلقى منهم رسائل تشيد به وتعترف له بمكانته العلمية والاجتماعية؛ فهو إذًا على وعي بما يريد أن يصل إليه، أي اعتراف العلماء له بهذه المكانة. فهو يقول في الافتخار بتلك الشهادات والرسائل: "شهادة الفحول... الأقطاب والراسخين في العلم... من حضرة فاس ومراكش ودرعة وسوس وسجلماسة وفجيج وتلمسان وتونس والجزائر وغيرها من سائر البلدان"(١٥).

لما رأى ابن أبي مَحَلِّي إقبال الناس عليه وتعلقهم به واعتقادهم ببركته وصدقه، بدأ يشيع فيهم أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا وظلمًا. ومن هنا بدأت تظهر لديه فكرة المهدوية، "ثم بدأ يشيع بالناس بأنه المهدي المنتظر، فتفرق عنه بعض أنصاره بسبب هذا الادعاء"(١٦)، ويشير الزياني إلى أن هذا الدعي ترك طريقة أسلافه واشتغل بما لا يعنيه، حتى نسبه بعضهم إلى الخوارج(١٧).

ويبدو أن هذا التوجه الجديد من ابن أبي مَحَلِّي قد نفر أتباعه عنه في بداية الأمر، حيث يذكر أحد معاصريه وهو الشيخ أبو العباس أحمد التواتي، أنه حينما سمع بهذه

---

(١٥) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي... ورحلته، ص٤٥-٤٦.

(١٦) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٤. (الأحاديث التي وردت عن المهدية تشير إلى أن اسم المهدي سيطابق اسم الرسول ﷺ. ولا ضير في ذلك فاسم أحمد من أسماء الرسول).

(١٧) الزياني: البستان، ص٣٧.

الدعوة منه قصده وجلس معه، فلما استمع إلى مقالته وتعلقه بالمهدوية، تركه وراء ظهره(١٨).

أما عن صفاته الشخصية فهو شخصية غريبة الأطوار، كثيرة المتناقضات، كان متعلقًا بفكرة المهدوية، مدعيًا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متشددًا في ذلك إلى درجة المجادلة والخصام والتشاجر، ألف في هذا المجال كتبًا كثيرة اتسمت عناوينها بالحدة والغلظة، رد من خلالها على من خالفه، وأظهرت حدة مزاجه على المنحرفين وأصحاب البدع، ونعتهم بأقبح النعوت، وتسميتهم بالجهلة والسفلة، حيث لا سبيل عنده معهم إلا شرخ رؤوسهم بالمهراس ورميهم بالمنجنيق وتمزيق أمعائهم بالسم الزعاف، هكذا جاءت عناوين كتبه التي ألفها متسمة بالحدة والشدة(١٩).

ونجد بعض صفاته الشخصية وأخباره الدقيقة في وثيقة إنجليزية كتبت في أسفي في ٢٤ رجب ١٠٢١هـ/ ١٩ سبتمبر ١٦١٢م، وتحمل توقيع (R. S)، يبدو أنها موجهة إلى جون هاريسون (J. Harrison)، الذي وصل إلى المغرب عام ١٦١٠-١٦١١م (١٠١٩-١٠٢٠هـ)، مبعوثًا من قبل الإنجليز إلى سلطان

---

(١٨) الناصري: الاستقصا، ٢٨/٦. أبو العباس أحمد التواتي: فقيه مغربي معاصر لابن أبي محلي، وكان مصاحبًا له وألف فيه رسالة سماها: مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي. الناصري، ٢٨/٦.

(١٩) محمد حجي: جولات تاريخية، ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م، ص٥٨٤. مؤلفاته كثيرة، منها: الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت، المنجنيق لرمي البدعي الزنديق، السيف البارق مع السهم الراشق، سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة...

المغرب آنذاك السلطان زيدان بن المنصور. وربما تكون تلك الوثيقة، التي هي رسالة كتبها رالف سيدرين (Ralph Sidderen) التاجر الإنجليزي المقيم حينذاك في أسفي. وقد نشرت تلك الرسالة في لندن عام ١٦١٣م (١٠٢٢هـ)، بالإضافة إلى رسالة أخرى تحت عنوان: مذكرات حول ثورة ابن أبي مَحَلِّي. من قبل آرثر جونسون (Arthur Jonson).

يذكر (R. S) عن ابن أبي مَحَلِّي قوله: "كنت في محلته وتحدثت معه وتعرفت على سلوكه، فوجدته متواضعًا جدًا ودمث الأخلاق. يتحدث بلطف، مشفقًا على المسيحيين الذين جرحوا في جيش خصمه، متحضرًا جدًا، بسيط الملبس. يضع على رأسه عمامة من القماش البالي، ويلبس قميصًا هولنديًا، بالإضافة إلى الحايك المصنوع من الصوف الناعم. يضع على جنبه سيفًا متواضعًا مغطى بجلد بال. يتميز عن أصحابه بالحكمة والعلم. فهو عالم بالفلك، سياسيٌ بارع، ولا يقل عنه بعض مستشاريه الخاصين. أما سلوكه الممزوج بالبساطة والأدب والرحمة فهو يجبر أنصاره على احترامه. بداية أمره وعلو شأنه شيء غريب. فهو من الأولياء وقد رحل إلى أماكن كثيرة من أجل العلم والمعرفة ووجد ضالته في بعض الكتب القديمة، والتي من خلالها عرف بأن رجلاً اسمه أحمد بن عبدالله يبعث إلى البلاد ليقيم فيها العدل والأمن. فآمن بذلك ونهض بدعوته من أجل القضاء على دولة السعديين، وقد آمن بفكرة الدعوة لمدة أربعين يومًا ثم ينزل المسيح بعدها. لقد قابلناه في ١٢ جولاي ١٦١٢م (١٤ جمادى الأولى ١٠٢١هـ) فاستقبلنا بكل ترحاب وأخبرنا بمودته

للإنجليز، والسماح لهم بمزاولة التجارة، وأنه عازم على فتح إسبانيا وفرنسا وإيطاليا"(٢٠).

يظهر من خلال هذا التقرير أن ابن أبي محلي كان مدركًا جيدًا لمسألة التنافس بين الإنجليز والإسبان. ويريد استغلال الصداقة التي كانت تجمع بين المنصور السعدي والإنجليز للاستعانة بهؤلاء الأخيرين ضد الإسبان الذين أعلن ابن أبي محلي أن ثورته كانت في الأساس ضدهم. خصوصًا أنه كان في حاجة للأسلحة والمتاجرة بذلك مع الإنجليز.

تعاطيه الدخان:

ارتبطت بابن أبي مَحَلِّي وشخصيته الغريبة ظاهرة تعاطي التبغ الذي صاحب غمرة الفتن التي تجددت في المغرب بعد وفاة المنصور السعدي، حيث تجدد رواج التبغ، وخاصة في الصحراء. وكان ابن أبي مَحَلِّي مدمنًا على التدخين ويرى حلِيّته ويناقش آراء القائلين بالتحريم. وقد حمل ابن أبي مَحَلِّي معه مقادير من التبغ إلى مصر في رحلته الحجازية الثانية عامي ١٠١٣-١٠١٤هـ/١٦٠٤-١٦٠٥م، فدخل التبغ بذلك - وربما لأول مرة - إلى بلاد النيل، ومنها انتشر في الشام والجزيرة العربية. لذلك أثار ابن أبي مَحَلِّي في مصر وفي أقطار المغرب العربي والسودان ضجة بإلقاء أسئلة يذكر فيها منافع التبغ. وقد وافقه في جواز تعاطي التبغ بعض

---

(٢٠) الوثيقة رقم CXXXII في:

Les Sources inédites de L'histoire du Maroc, 1ére Série, dynastie Sa'dienne, T.II, p..465

وسيشار إلى هذا المصدر لاحقًا S. I. H. M. D. S.

علماء عصره، مثل قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي (ت بعد ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م) وأحمد بابا التنبكتي. وعارضه بعض علماء مصر والمغرب الأوسط ومنهم إبراهيم اللقاني المصري (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) عام ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، الذي أشار إلى دخول الدخان إلى مصر على يد ابن أبي مَحَلِّي باعتباره من المفسدين في الأرض. فهو يشير إلى أن الذي أدخله إلى مصر رجل من تافيلالت من بلاد المغرب يدعى أحمد بن عبدالله الخارجي، وهو مشهور بسفك الدماء بغير حق، وإهانة الأشراف من ملوك المغرب. وقد أغلظ اللقاني القول بحقه(٢١).

أما الزياني فيشير إلى أن ابن أبي مَحَلِّي أول من أباح استعمال الدخان بالمغرب وزعم حليته. ولما سافر إلى الحجاز صحب معه أحمالاً منه، ويذكر أن إمام المالكية بمصر، الذي زار المغرب في ذلك الوقت الشيخ سالم السنهوري (ت ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م)، قد ذكر أن ابن أبي مَحَلِّي هو أول من أدخل هذه العشبة الخبيثة أرض مصر، وهو خارجي مبغض لآل البيت(٢٢).

لقد حدثت نقاشات كثيرة بين ابن أبي محلي وعلماء المذاهب الأربعة، وخاصة في مصر، في إصدار فتوى في

---

(٢١) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ١، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦م ، ١/٢٤٧-٢٥٤. (إبراهيم اللقاني مفتي المالكية بمصر وصاحب الحاشية على مختصر خليل. الصفوة، ص١٢٥).

(٢٢) الزياني: البستان الظريف، ص٣٧-٣٨.

شأن شجرة التبغ. فأجابه بعضهم بالتحريم، وأفتى بعضهم الآخر بحليته. كما اعتبره الذين حرموا تناول الدخان المسؤول عن انتشاره في الشرق، وكان لهذه الضجة أثر سلبي عليه في المغرب(٢٣).

قد يكون ابن أبي محلي ضحية مناوئيه الذين حاولوا إلصاق كثير من التهم به، ربما بسبب حدته وصرامته.

المهدوية عند ابن أبي مَحَلِّي:

لقد استغلت المهدوية في المغرب استغلالاً سياسيًا غير مرة، فقامت عليها دولة الموحدين، واتكأ عليها السعديون، وظهر مدعون للمهدوية كثير، حاولوا الاستحواذ على السلطة مستغلين شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم تكن لهم حظوظ وافرة في النجاح. ومنهم ابن أبي مَحَلِّي الذي كانت المهدوية أبرز جانب في شخصيته المعقدة، ولازمته وساوسها منذ شبابه، وظلت ملازمة له في أطوار حياته إلى وفاته. وقد اختلطت المهدوية بالتصوف في ذهن ابن أبي مَحَلِّي، وتحدث في كتبه عن المهدي المنتظر، وأنشد قصائد في مناجاة المهدي، وكأنه عاشق ولهان، وتصور نفسه أنه هو المهدي، وتوسل إلى هذه الشخصية الكامنة فيه داعيًا إياها إلى الظهور والقيام بالدور المنتظر في تغيير المنكر ونشر العدل، وقال في ذلك أرجوزة:

عرضنا الله لنفحه الخفي   بهمة بكل مقصد تفي

---

(٢٣) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي... ورحلته، ص١٣٤.

ما زلت من تشغافه أحاكي   قيسًا على ليلاه في التباكي
يا ليتني من المبشر به   وبطلوع شمسه من غربه
قد طال ما رجوته لكربي   يكشفه عني وفرط حبي(٢٤)

حج ابن أبي مَحَلِّي عدة مرات، وكانت حجته الأولى عام ١٠٠٢هـ(٢٥). ومن بعد الحجة الأولى قرر التراجع عن التصوف الشعبي المبني على الأحوال، معتذرًا عما صدر منه قبل ذلك، فما أسباب تراجعه؟ ولماذا أنكر ما يفعله أصحاب هذا التوجه؟ هل يكون ذلك من أجل التهيؤ لمشروع سياسي إسلامي بعيد عن الارتباط بحياة العامة؟ إن محاولات ابن أبي مَحَلِّي التبرؤ من التصوف العامي توحي إلى بلورة مشروع سياسي قادم، خاصة بعد رحلته إلى المشرق، وتمكنه من الإحاطة بما كان يجري داخل المنطقة، فساورته فكرة جمع المسلمين وبدأ يظهر علو نسبه ويلمعه، ويتحدث عن شرفه وانتمائه إلى العباسيين من ناحية الأب، وإلى الفاطميين من ناحية الأم.

فهل يكون الجمع بين الشرف الفاطمي والعباسي هو مطية مبيتة للوصول إلى هدف سياسي؟ الخلافة مثلاً؟ لاسيما وأنه بدأ يصرح بأن الخليفة لا يزال عباسيًا، وأن الأتراك في إسطنبول مقرون بذلك، وهم ليسوا سوى خلفاء لبني العباس. ألا يمكن القول بأنه ربما كان يخطط لأمر

---

(٢٤) محمد حجي: الحركة الفكرية ، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢٥) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٣.

الخلافة(٢٦)؟ مع العلم بأن الخلافة العباسية قد طويت صفحتها مع نهاية حكم المماليك إثر معركة الريدانية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وقد رأى أن أفضل طريق للإعلان عن مقاصده هو الالتجاء إلى المهدوية مطية لتجاوز الحدود الشرعية التي تقف حجر عثرة في سبيله. وحتى لا يكون أمره سبيلاً إلى فتنة الخروج على الإمام، نجده يعلن أن مرتكب الكبائر - ويقصد بذلك السلطان زيدان - إن قام عليه عادل - يقصد نفسه - غيرة على الدين، وجب على كل مسلم مساندته، ومن لم يفعل فهو عاص(٢٧).

كان ابن أبي مَحَلِّي على وعي بمسؤوليات الفقيه العالم فهو يحدد مسؤوليات أولي الأمر في المجتمع. وهم ثلاثة في رأيه: الأمراء العادلون، والعلماء الراسخون، والأولياء العارفون في الإسلام والإيمان والإحسان. وكل منهم صاحب أمر في فنه وإليه يرجع فيه، وقد تمنى أن تجتمع كل هذه الاختصاصات فيه(٢٨).

---

(٢٦) يرى عبدالمجيد القدوري أن هناك عدة مؤشرات توحي بذلك: انتحاله الانتساب إلى آل العباس، وذكره أن الأتراك هم منفذون لسياسة الخليفة العباسي، اعتباره أن المهدي المنتظر سيستعمل الأتراك وزراء (ابن أبي محلي... ورحلته، ص٧٩).

(٢٧) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي مَحَلِّي. نموذج الفقيه الثائر على الوضعية والمنادي بالوحدة (٩٦٧-١٠٢٢هـ/ ١٥٦٠-١٦١٣م)، منشور في كتاب: في النهضة والتراكم. دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص٢٨٩-٢٩٤. (سيشار إليه لاحقاً: ابن أبي محلي. نموذج...).

(٢٨) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي. نموذج...، ص٢٨٠.

وقد شن اليوسي، أحد علماء وأعلام القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، انتقادًا لاذعًا على من يدعي المهدوية ظنًا منه أنه قادر على إقامة الحق وإنصاف المظلوم فيقع منه عكس ذلك؛ لأنه بهذا التصرف، في نظر اليوسي، يهدم الدين ولا يبنيه. ثم قال: "ومن ابتلي بهذا أحمد بن عبدالله ابن أبي محلي... فنزعت فيه هذه النزعة...، فخرج إلى الناس يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ... فوقع في شر وخصام... ثم ذهب إلى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر، وأنه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام فاتبعوه"(٢٩).

كانت فئات عريضة جدًا من المجتمع المغربي تنتظر ظهور المهدي، خصوصًا خلال المحن التي عرفها المغرب قبيل موت المنصور وبعدها مباشرة. واتخذ بعض المعارضين للدولة السعدية المحتضرة المهدوية مطية للوصول إلى السلطة . ويبدو أن ابن أبي محلي، الذي عايش الأزمة العامة التي عرفها المغرب بعد موت المنصور السعدي بسبب المجاعات والأوبئة، وتناحر أبناء المنصور، وتسليم ميناء العرائش للإسبان، اعتبره بعض أهل المغرب منقذًا ومخلصًا لهم، وعومل كمهدي منتظر من قبل فئات عريضة من سكان الجنوب المغربي. وقد عبر ابن أبي محلي نفسه عن أسباب اهتمامه بموضوع المهدي المنتظر، معللاً ذلك بأنه قد جاء في

---

(٢٩) الحسن اليوسي: المحاضرات، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦م، ص١٠٥-١٠٦.

زمان انتظاره. وقد وجه ابن أبي محلي النصائح لمعارضيه بالتخلي عن موقفهم وتصديق مهدويته(٣٠).

لقد كانت فكرة القيام على السلطة تراود ابن أبي مَحَلِّي منذ وقت مبكر في حياته. فالمصادر تؤكد أنه لما طاف بالبيت في حجه دعا ربه أن يجعل له دولة، لكنه لم يسأله حسن العاقبة. ولذلك كان يردد على أصحابه في بعض المناسبات قوله: أنا سلطان، أنا سلطان. ويكررها في بعض المناسبات، على الرغم من انتقاد بعضهم له، ومن أبرزهم شيخه ابن مبارك الذي نبهه إلى أن هذا الأمر ليس له قائلاً: "يا أحمد، هب أنك تكون سلطانًا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً"(٣١).

أكثر ابن أبي مَحَلِّي من أحاديثه عن المهدوية، وتجرد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاصة في البوادي والأطراف النائية والبعيدة عن سلطة السعديين الضعيفة، بل وأظهر الرغبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مصر والحجاز، ومهد لذلك بدعوى القرشية والانتساب لبني العباس، وخاصة أن الفرصة كانت مواتية له بعد وفاة المنصور السعدي ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م، حيث دخلت بلاد المغرب بعد ذلك في طور الحرب الأهلية وانتشار الفتن. وحاول في البداية أن يقف إلى جانب سلطان الوقت، السلطان زيدان بن المنصور، مؤملاً أن الله سيبعثه إلى جانبه للقضاء على البدع

---

(٣٠) أحمد أبو شرب: وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، دار الأمان، الرباط، ١٩٩٧م، ص٨٠.

(٣١) اليوسي: المحاضرات، ص١٠٦؛ الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٤.

والمبتدعين، وراجيًا أن يكون هو المجدد، أي المهدي المنتظر، وأن يحقق الله له بعض أحلامه في الولاية والسلطان. وكان يستحث زيدان على القيام بتطهير البلاد من المناكر والضرب على أيدي المفسدين. لكنه لما لم يجد منه استجابة لمطالبه الظاهرة والخفية قلب له ظهر المجن وأخذ يشتمه ويسبه، ويقول عنه إنه من الموالين للكفار، بل هو منهم(٣٢).

وبعد إعلان ثورته على سلطان الوقت زيدان، كما سيأتي معنا مفصلاً، كتب ابن أبي مَحَلِّي رسالة مطولة انتقد فيها حال الوقت، وفساد الولاة، وانتشار المحرمات، ورد على الذين أنكروا عليه إعلان الثورة على السلطان الشرعي مبينًا شروط الإمامة في الإسلام ذاكرًا بأن: "المجاهر بالكبائر - يشير إلى زيدان - إن قام عليه عادل -يعني نفسه- غيرة على الدين وجب على كل المسلمين القيام مع الثاني ليظهر دين الله، والمتخلف عنه عاص"(٣٣). وخصص ابن أبي مَحَلِّي القسم الأخير من تلك الرسالة للحديث عن المهدوية، التي ظلت عالقة في أذهان بعض أتباعه حتى بعد موته، لمدة تزيد عن قرنين وهم ينتظرون ظهوره(٣٤).

استعمل ابن أبي مَحَلِّي في أحاديثه وفي مؤلفاته، وبكثرة، ألفاظ الأدوات المدمرة والأدوات الحربية مثل: السيف والمنجنيق والمهراس وقطع البلعوم والسم ونحوها، مختلفًا

---

(٣٢) محمد حجي: الحركة الفكرية، ١/٢٢٨- ٢٢٩.

(٣٣) محمد حجي: الحركة الفكرية، ١/٢٢٩.

(٣٤) محمد القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٨م، ١/١٩٢.

بذلك عن معاصريه. فهل كان هذا النهج منه بسبب ما أصاب البلاد من كوارث وتحولات بسبب المجاعات والحروب الأهلية؟ أم هو ردة فعل على غزو البرتغاليين للمغرب عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، والخوف من وصولهم إلى مدينة العلم فاس؟ التي خرج منها مع من خرج، ولم يشارك في المعركة على الرغم من أن عمره كان حينذاك تسعة عشر عامًا؟ فهل كان نادمًا على تخلفه عن المشاركة في الجهاد ضد البرتغاليين، ومن ثم الحصول على الشهرة والسمعة والجاه الذي حصل عليه المشاركون فيها، لاسيما الفقهاء؟ لا شك أن هذه الأسئلة مجتمعة تلقي بظلالها على رسم شخصيته التي تميزت بالعنف والخصام(٣٥).

إن المصادر الأجنبية التي عايش أصحابها ابن أبي مَحَلِّي وتنقلوا معه تجعله أكثر تطرفًا في حق زيدان، حين تشير إلى أنه قد حكم على هذا الأخير بالكفر وأنه نصراني هو وأنصاره؛ لأنه يسلب الناس بغير حقٍّ ويقتل ويعذب بدون سبب، بل بمجرد غضبة منه، ولا يتردد في شرب الخمر واستعمال الأفيون(٣٦).

---

(٣٥) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي. نموذج...، ص٢٨١-٢٨٦.

(٣٦) رسالة كتبت في أسفي في ٢٠ سبتمبر ١٦١٢م وتحمل توقيع G. B. وربما تكون من George Blowe، التاجر الإنجليزي المقيم آنذاك في أسفي، وهي كسابقتها يبدو أنها موجهة إلى جون هاريسون. انظر الوثيقة رقم CXXXII في (S. I. H. M. D. S., T. II, p.475)؛ خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية (١٦٠٣-١٦١٣م)، ترجمة عبدالواحد أكمير، معهد الدراسات الأفريقية، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص١٣٧، ١٥٦، ١٥٩.

ثورة ابن أبي مَحَلِّي:

بحث ابن أبي مَحَلِّي عن الذرائع التي تبيح له حق الثورة ضد السلطة ويمكن توظيفها شرعيًا لصالحه، فكانت مناسبة تنازل محمد الشيخ المأمون أخي السلطان زيدان عن ثغر العرائش لصالح إسبانيا في عام ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م، هي الفرصة التي اهتبلها ابن أبي مَحَلِّي معلنًا أن الثورة ليست سوى هبة للدفاع عن حوزة الإسلام وبلاد المسلمين.

لقد احتلت إسبانيا أجزاء واسعة من ثغور الجزائر وبلاد المغرب مثل وهران والمرسى الكبير وثغر الجزائر والحسيمة ومليلية وغيرها. وتركز احتلالهم زمن ابن أبي مَحَلِّي في وهران وبعض البلاد المجاورة لها، واستمر احتلالهم لها أكثر من قرنين. وخلال تلك المدة تبنى ثلاثة من المغاربة المطالبة بتحرير وهران، أولهم ابن أبي مَحَلِّي، وقد نظم أكثر من قصيدة يستنهض بها العالم الإسلامي عامة والسعديين والأتراك خاصة، ومنها قوله(٣٧):

ويا معشر الإسلام في كل موطن   وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم   وغيرهم، بالله ما صبر صابر؟
ويا معشر الأتراك يا كل عالم   وكل ولي حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم   لدى الله في وهران أم الخنازر

---

(٣٧) محمد المنوني: "مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية"، دعوة الحق، ع٣، السنة ١٣، ذو القعدة وذو الحجة، ١٣٨٠هـ، ص٥٠-٦١. وبعد ابن أبي محلي يأتي عبدالرحمن الجامعي الفاسي زمن السلطان إسماعيل، والثالث هو عبدالواحد البوعناني الفاسي.

لقد فر محمد الشيخ المأمون، بعد مطاردة أخيه زيدان له، إلى إسبانيا ملتجئًا إلى ملكها فيليب الثالث (١٥٩٨-١٦٢١م)، ومستصرخًا إياه ضد أخيه، بعد أن عرض عليه مسألة التنازل عن العرائش(٣٨).

يتحدث محقق مرآة المحاسن عن الفتنة التي حصلت في المغرب إثر تسليم المأمون السعدي للعرائش، ويذكر أن ذلك قد تسبب في امتعاض عام من قواد جيشه وعلماء البلاد والقبائل وجمهور الشعب المغربي، حتى بدت بوادر الفتنة تظهر عيانًا؛ لأن المرجعية الشعبية كانت مرجعية إسلامية. وكان المأمون لما خاف من الفضيحة وإنكار العامة والخاصة عليه إعطاءه العرائش - بلاد الإسلام - للكفار، احتال على ذلك بأن كتب سؤالاً لعلماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما دخل إلى إسبانيا بأولاده وحشمه منعه الإسبان من الخروج من بلادهم بعد أن دخلها حتى يعطيهم ثغر العرائش ولم يسمحوا له بالخروج من عندهم حتى ترك عندهم أولاده رهنًا ليمكنهم من طلبهم. فهل يجوز أن يفدي أولاده من أيديهم بإعطائها لهم؟

وقد انقسم العلماء في الفتوى إلى ثلاثة أقسام:

- قسم سلموا له ما أراد ووافقوه في مقصده.
- قسم جابهه ورفض مطلبه وشنع عليه، بل ودعا إلى حربه؛ إذ الاستعانة بالكافر على المسلم، حسب رأي هذا القسم، كفر تنص عليه أحكام الشريعة.

---

(٣٨) محمد القادري: التقاط الدرر، ص٥٠.

- قسم امتنع عن الإدلاء برأيه، موافقة أو رفضًا، مع رفضهم الباطن(٣٩).

ولعل أيضًا في سوء سيرة السلطان زيدان ما ساند ابن أبي مَحَلِّي في إذكاء مشاعر العامة ضده. فقد عرف عن زيدان سوء السيرة وسياسة البطش التي كانت سببًا في تمرد أرباب الزوايا وممارستهم المباشرة لأعمال الجهاد، حيث أصبح للصوفية في عهده نفوذ على العامة ونسبت إليهم الكرامات. ومن ثم غالى بعضهم في تقديس الأولياء ووصفوا بعضَهم بالعصمة، وبعضهم بالولاية والمهدوية. ومن أشهرهم ابن أبي مَحَلِّي الذي شاع خبره في الجنوب، واشرأبت نفسه نحو قيادة الإصلاح، فتولى عبء الدعوة لنفسه في الجنوب مباشرة، معلنًا العمل المسلح ضد السعديين(٤٠).

يقول دي هنين في مذكراته أن زيدان عاد ليمارس طغيانه على الأهالي وإجبارهم تحت وطأة التهديد على تسليم أموالهم وممتلكاتهم، مستعملاً في ذلك كل أنواع البطش والتنكيل(٤١). ويمارس قادته الأسلوب نفسه مع الناس، مثل القائد الحاج المير خليفته على سجلماسة. لذلك لم يتحمل

---

(٣٩) انظر بهذا الخصوص: محمد العربي الفاسي: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، رابطة أبي المحاسن، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ص٤٢-٤٣؛ القادري: التقاط الدرر، ص٥٣؛ إبراهيم حركات: المغرب، ٢/٢٧٩؛ عبداللطيف الشادلي: الحركة العياشية، ص٣٥.

(٤٠) إبراهيم حركات: المغرب، ٢/٣١٥-٣٢١. (بل غالى بعضهم في الاعتقاد بمشايخ الصوفية إلى حد ادعاء النبوة لهم).

(٤١) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٢٨.

سكان تافيلالت بطشه وطغيانه، فقدم أعيانهم شكاواهم وتظلمهم إلى ابن أبي مَحَلِّي، أحد مرابطي ومتصوفة منطقتهم آنذاك وشرحوا له أن زيدان وجنوده لا يقنعون بالجبايات المعتادة والمتعارف عليها، لكنهم يظلمون ويعتدون ويصادرون، وأن أملهم في ابن أبي مَحَلِّي كبير لإنصافهم. ولم يكن المتظلمون من تافيلالت فقط، بل جاءوا إليه من مراكش أيضًا. ويشير معاصر لهذه الأحداث إلى تظاهر ابن أبي مَحَلِّي بعدم الرغبة في الأمور الدنيوية، وهو في ذلك يمهد لأن يقبلوا بشروطه التي سيطلبها منهم، والحديث عن الرؤيا التي تبشر بظهور شخص يحمل صفات ابن أبي مَحَلِّي نفسها ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملأها أبناء المنصور ظلمًا. وأن الرؤيا تأمره بأن يدافع عن المسلمين بحد السيف ضد الملوك الظالمين، وأن الله سيهيئ لهم فتح الممالك المسيحية، وأن أتباع ابن أبي مَحَلِّي لا خوف عليهم من أعدائهم. ولذلك لما تقاطرت عليه جموع من البربر الذين آمنوا بما أقنعهم به من الكرامات، أعلن الحرب على المسيحيين وأقنع أصحابه بأن زيدان والمأمون هما مسيحيان؛ لذا يجب محاربتهما قبل غيرهما(٤٢). ويرى بعض الباحثين أن ثورة ابن أبي محلي تدخل ضمن صراع الزوايا الصوفية، سواء تعلق الأمر بالصراع الذي خاضته بينها، أو ذلك الذي واجهت فيه السلاطين. وأن الغاية الأساسية من هذه الثورة هي الاستيلاء على الطرق التجارية والوصول إلى الحكم. وأن مغامرة ابن

---

(٤٢) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٣٣-١٣٧.

أبي محلي كانت صورة مشوهة للمرابط الحقيقي؛ لأنه كان يتظاهر بالولاية من أجل تبرير طموحاته الشخصية(٤٣).

لم يتردد ابن أبي مَحَلِّي حينما كثرت جموعه وتقاطرت عليه الوفود من أجل الزيارة، أن يصرح لهم بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس، وجعل يقول بأن أبناء المنصور السعدي قد تهالكوا في طلب الملك حتى فني الناس بينهم، وانتهبت الأموال، وانتهكت المحارم، فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم(٤٤).

بدأ ابن أبي مَحَلِّي بعد ذلك يكاتب رؤساء القبائل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحضهم على الاستمساك بالسنة، ويعلن أنه الفاطمي وأن من تبعه فهو الفائز، ومن تخلف عنه فهو الهالك(٤٥).

كان ابن أبي مَحَلِّي يتمتع بشعبية كافية في الجنوب الشرقي للمغرب، كما أن صلاحه وفقهه في الدين قد مكناه من التمييز بين المنكر والمعروف، وأوجب عليه تغيير المنكر ما أمكن باليد أو اللسان. ولكن هل كان يترتب على ذلك الموقف منه خروج عن طاعة الإمام؟ وقتل الناس بغير حق؟ والتسبب في انتهاك المحارم؟ من هذا المنطلق يظهر أن ابن أبي مَحَلِّي كان أمام اختيارين: المشاركة في النشاط السياسي كضرورة يقتضيها لزوم تغيير المنكر، أو الامتناع عن المشاركة في ذلك النشاط؛ تلافيًا للوقوع في آفات الخروج عن طاعة الإمام.

---

(٤٣) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي... ورحلته، ص١٣.

(٤٤) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٦.

(٤٥) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٦.

ولا بد أن الاختيار كان صعبًا جدًا في وقت فضل فيه كثير منهم التزام الحياد في هذا الصراع. بينما شارك بعضهم في الأحداث، وتحمل مسؤولية تدخله؛ لأنه اقتنع بضرورة القيام بعمل ما ما دام غيرهم لا يستطيع القيام به. ولا شك أن ابن أبي مَحَلِّي حينما اختار هذا السبيل كان على قناعة بأن ما يقوم به مدعوم من طرف الرعية التي تعتبره، والحالة هذه، عملاً شرعيًا وليس خروجًا عن الطاعة(٤٦).

كانت كل الظروف مهيأة لابن أبي مَحَلِّي لإعلان الثورة، لذلك حين بلغه نبأ تسليم المأمون العرائش للإسبان في ٢٠ نوفمبر ١٦١٠م، قرر الخروج للجهاد وإعلان الثورة. واستغل ذلك الحدث ليعلن خلع الإمام شرعًا، وأن الأمة لا يحل لها أن تبقى بلا إمام، ويجب عليها شرعًا الدخول في طاعة من يتوفر على شروط الإمامة. وهو يوحي بذلك إلى نفسه. كان ابن أبي مَحَلِّي حينما بلغته أنباء التنازل عن العرائش مقيمًا يومئذ بداره في قرى بني عباس بصحراء توات، منهمكًا في التأليف، فتوقف عن الكتابة ونهض لاستثارة الناس وتعريفهم بخطورة الأمر، وأنشد قصيدة حماسية من خمسين بيتًا، تفجع فيها على سقوط ثغر العرائش، واستنهض الهمم للجهاد وتخليص المدينة وسكانها المشردين من قهر المتسلطين، خصوصًا من كان منهم ذا سلطان. وقد جاء فيها(٤٧):

---

(٤٦) عبداللطيف الشادلي: الحركة العياشية، ص٦٩- ٧٧.

(٤٧) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي. نموذج...، ص٢٩٥؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، ٢٠٧/١؛ محمد حجي: جولات تاريخية، ٥٦٣/٢.

لئن صح ما قد قيل ما عيش عائش
إذا أخذ الكفار ثغر العرائش
فيا معشر الإسلام من بعد عزكم
عليكم أخاف الذل لا من مناوش
فأين ملوك الغرب من كل ضارب
بسيفٍ ورامٍ في جيوش الأبارش
فيا معشر الإسلام عارٌ عليكم
تذلون بعد العز خوف الخشائش

هكذا أعلن ابن أبي مَحَلِّي الثورة وأعلن خلع الإمام شرعًا. والمقصود بالإمام هنا هو السلطان زيدان. فهل كان هذا الأخير هو من تنازل عن ثغر العرائش للإسبان؟ وهل كان متواطئًا مع أخيه على هذا الأمر؟

لا شك في أن المأمون هو المسؤول بالدرجة الأولى عن سقوط العرائش حينما قدمها للإسبان آملاً في مساعدتهم ضد أخيه زيدان، الذي لم يكن حتمًا راضيًا عن مسألة التنازل عن شيء من بلاده لصالح أعدائه، لاسيما وأن لدينا بعض الإشارات التي تفيد بأنفته عن الاستعانة بغير المسلمين في حرب المسلمين. فالناصري يذكر نقلاً عن أحد البرتغاليين أن نصارى الجديدة بعثوا إلى السلطان زيدان بمئتين من مقاتلتهم إعانة له على عدوه (ابن أبي مَحَلِّي) من غير أن يطلب منهم ذلك، فلما وصلوا إليه أنف من

الاستعانة بهم على المسلمين، لكنه أحسن إليهم وردهم مكرمين(٤٨).

كان على ابن أبي مَحَلِّي أن يعلن الثورة إذًا على المأمون ويتجه مباشرة لإنقاذ العرائش إذا كان صادقًا فيما ذهب إليه، لكنه تظاهر كما يشير الإفراني، بأنه إنما ثار غضبًا لدين الله وأهله لا حمية وتعصبًا فخرج إلى سجلماسة معلنًا ثورته(٤٩). وقد انضم إليه في هذه الثورة أهل الجبال والسهول والحضر والبدو والعرب والبربر، وتمكن من الاستيلاء على جنوب المغرب بدلاً من التوجه بهذه الجموع لإنقاذ العرائش(٥٠). وقد ذكر التاجر الإنجليزي G. B، الذي قابل ابن أبي مَحَلِّي بعد إعلان الثورة، أن هذا الأخير قد أعلن رغبته في تثبيت قواعد الدين أولاً، ثم مواصلة جهاده ضد إسبانيا وفرنسا وإيطاليا(٥١).

تمكن ابن أبي مَحَلِّي من هزيمة عامل زيدان على سجلماسة الحاج المير، الذي خرج لملاقاته بعدد كبير من الجيش يفوق ما مع ابن أبي مَحَلِّي عدة مرات، لكنه انهزم ودارت الدائرة على عامل زيدان وجيشه، "وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبي مَحَلِّي باردًا لا يضرهم فسكنت هيبته في القلوب وتحرك له ناموس عظيم"(٥٢).

---

(٤٨) الناصري: الاستقصا، ٣١/٦.

(٤٩) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

(٥٠) محمد حجي: الحركة الفكرية، ٢٠٨/١؛ عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي. نموذج...، ص٢٩٥.

(٥١) الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p. 469).

(٥٢) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

لقد رددت المصادر الأجنبية فكرة وقوع رصاص جيش زيدان باردًا على أفراد جيش ابن أبي مَحَلِّي، وخاصة المصادر التي عايش أصحابها تلك الأحداث أو شارك بعضهم فيها، ولا شك أنها من وحي الإيمان المطلق لدى أنصار ابن أبي مَحَلِّي بكراماته وخوارقه التي كان حريصًا باستمرار على نشرها(٥٣).

لما دخل ابن أبي مَحَلِّي إلى سجلماسة بعد هزيمة قائد زيدان فيها أظهر العدل وغير المنكر، وقدمت عليه الوفود من أنحاء متفرقة من أجل التهنئة. ولما بلغت أنباء الهزيمة زيدان وهو يومئذ في عاصمته مراكش، قرر تجهيز جيش أكثر عددًا من السابق، وأمر عليه أخاه عبدالله المعروف بالزبدة(٥٤) وعززه بالقائد عبدالصادق بوطويرة، ووجه الجيش للالتحاق بالحاج المير(٥٥).

وحينما سمع ابن أبي مَحَلِّي بهذه الاستعدادات، توجه نحو درعة لملاقاة خصمه الذي مني أيضًا بهزيمة منكرة وفقد من جيشه أعدادًا كبيرة جدًا؛ مما زاد من شعبية ابن أبي مَحَلِّي ومن ثم اشتداد شوكته، حيث جمع بين سجلماسة ودرعة(٥٦).

ولعل أسباب هزيمة جيش زيدان في مواجهاته مع ابن أبي مَحَلِّي، على الرغم من تفوقه في العدد والعدة ترجع، كما يذكر دي هنين، إلى أن أغلب جيش زيدان فر من المعركة

---

(٥٣) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٦؛ الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p. 467).

(٥٤) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

(٥٥) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٤٠.

(٥٦) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

لأنهم جندوا عنوة، لذا قرر زيدان عدم الدخول بعد ذلك في مواجهة مع ابن أبي محلي. ويضيف الإفراني سببًا آخر من أسباب الهزيمة يتمثل في خيانة بعض قادة زيدان له، ثم هروبهم نحو خصمه أمثال القائد يونس الأيسيّ الذي هرب من محلة زيدان لأمر نقمه عليه، وتوجه نحو ابن أبي مَحَلِّي، وأطلعه على عورات خصمه، وهون عليه أمر التوجه نحو مراكش(٥٧). ويؤكد دي هنين، وهو مشارك في الحرب مع زيدان ضد ابن أبي مَحَلِّي قبل أن يفر مع من فر، ثم يقبض عليه في مراكش حينما يدخلها ابن أبي مَحَلِّي، أن هذا الأخير قد نجح في أسلوب الجاسوسية حين كتب إلى بعض قادة زيدان يخبرهم بأنه سيجعلهم من كبار قادته إذا التحقوا به. وقد نجح هذا الأسلوب ففر بعضهم إليه، وأشهرهم القائد عزوز وهو من كبار قادته، فارتفعت بذلك أسهم ابن أبي مَحَلِّي، وأصبحت هزيمة زيدان شبه مؤكدة. وقد نصح القائد عزوز ابن أبي مَحَلِّي بالتوجه نحو مراكش، وبين له أنه إذا فعل ذلك فسيكون سيدًا على منطقة السوس دون منازع. كما انضم قائد ثالث إليه يدعى عبدالصادق. ولما تبين لزيدان أن نشوب المعركة أصبح حتميًا وأن ابن أبي مَحَلِّي لم يعد يفصله عن مراكش إلا مسافة ثلاثة أيام، أرسل القائد عبدالقادر يطلب المساعدة من أعراب دكالة؛ لكنهم لم يفعلوا واحتجزوا القائد عندهم(٥٨).

---

(٥٧) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٤١؛ الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

(٥٨) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٠- ١٥٣.

وقعت معركة مراكش في ٢٠ ربيع الأول ١٠٢١هـ/ ٢٠ مايو ١٦١٢م بالقرب من المدينة، وكان جيش زيدان يتفوق في عدد الخيول والمشاة وعدد محدود من المدافع. بينما لا يمتلك خصمه مدفعية، وعمدة جيشه من الأعراب المتسلحين بالرماح والسهام. وقد انتابهم الذعر لما رأوا كثرة جيش زيدان. لكن ابن أبي مَحَلِّي أخذ يحثهم على الجهاد ويشجعهم على مواصلة القتال موضحًا لهم ألا يخافوا من مدفعية خصمه التي لن تنطلق نحوهم بل ستعود على أصحابها. وقد أسهم الجواسيس في كشف المعركة لابن أبي مَحَلِّي وأخبروه بأن المدفعية قد تعطل معظمها عن العمل، فشجعت هذه الأنباء جيش ابن أبي مَحَلِّي على الإقدام على جيش زيدان الذي بدأ ينهزم، حيث قتل منه القائد عبدالله الزبدة ومحمد بن الزبير وعدد غير قليل من القادة، ووصل عدد القتلى في جيش زيدان إلى الآلاف. بينما فر زيدان نحو مراكش ومنها هرب إلى أسفي(٥٩).

كان زيدان قد أمر قبل المعركة بترحيل أمه ونسائه إلى خارج مراكش، وأمرهن بالتوجه نحو أحد الجبال في حال وقوع الهزيمة عليه، ليلتقوه به هناك. وقد نجا زيدان بصعوبة، حيث فر مع ستة من الفرسان، والتقى بحريمه في الجبل، ومن ثم هرب الجميع متوجهين نحو أسفي، ومنها إلى منطقة السوس. وتؤكد المصادر المعاصرة لتلك الأحداث التي

---

(٥٩) الوثيقة رقم CXXXII في:
S. I. H. M. D. S., T. II, pp.466- 467.

شارك بعض أصحابها في المعارك أو قابلوا بعض قادتها أن زيدان قد خرج من مراكش، والتحق بنسائه خارجها وفيهن والدته(٦٠). لذلك فإنه لا صحة لما ذكره الإفراني من أن ابن أبي مَحَلِّي حين دخل مراكش تزوج بأم زيدان(٦١).

لعل من أهم أسباب هزيمة زيدان في معركة مراكش، إلى جانب الخيانات التي وقعت في صفوف جيشه، ما ذكرته المصادر من أن عددًا من جنوده كانوا مكبلين بالقيود؛ لأنهم ضموا إلى معسكره بالقوة، وتخوفًا من فرارهم لم تفك قيودهم إلا مع بداية المعركة(٦٢).

هل تلقى ابن أبي مَحَلِّي في حربه لزيدان دعمًا خارجيًا؟ تفيد المصادر التي بين أيدينا أنه لم يتلق إلا دعمًا معنويًا من قبل أتراك الجزائر. فيذكر الإفراني بأنه لما دخل سجلماسة قدمت عليه وفود أهل تلمسان يهنئونه بالفتح(٦٣).

لم يتعامل الأتراك مع قوة سياسية واحدة في المغرب، بل تعاملوا مع سائر القوى التي كان لها حضور في الساحة السياسية المغربية. إذ باركوا حركة ابن أبي مَحَلِّي، فعندما دخل هذا الأخير إلى سجلماسة، استقبل عدة وفود تهنئه، وتذكر المصادر أن من بين هذه الوفود وفدًا جزائريًا تركيًا

---

(٦٠) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٤؛ الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p.468).

(٦١) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

(٦٢) خورخي دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٥.

(٦٣) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

يرأسه أحد تلاميذ ابن أبي مَحَلِّي وهو الفقيه سعيد بن الحاج إبراهيم قدورة (ت ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م). ولا تفيد المصادر بتجاوز هذا الحد من العلاقات، بما في ذلك المصادر العثمانية(٦٤). ولا بد أن قصر المدة التي قضاها ابن أبي مَحَلِّي في السلطة لم تمكن الأتراك من تنظيم تأثيرهم، إن كان لهم تأثير فعلاً في حركته(٦٥).

لم يدخل ابن أبي مَحَلِّي عاصمة السعديين مراكش إلا بعد أن نظفها من فلول خصمه، وأقر الأمن فيها، ثم بعد ذلك نادى المنادي بابن أبي مَحَلِّي سلطانًا على الجميع(٦٦).

وبعد ذلك اتجه أعيان مراكش وفقهاؤها إليه لتهنئته وطلب الإذن بدفن جثمان عبدالله الزبدة أخي زيدان وكبار القواد الذين قتلوا في معركة مراكش. لكنه رفض ذلك بحجة أنهم كانوا مسيحيين لا يستحقون أن يدفنوا في مقابر المسلمين؛ غير أنه سمح بدفن عبدالله الزبدة؛ لنسبه الشريف(٦٧).

وقد سرت في أوساط أتباعه من البربر والعرب بعد معركة مراكش إشاعة صحة معجزاته، خاصة لما عرفوا أنه لم يمت منهم أحد في المعركة فأصبحوا يعتقدون أنه لا يمكن

---

(٦٤) عبدالرحيم بنحادة: المغرب والباب العالي من منتصف القرن ١٦م إلى نهاية القرن ١٨م، مؤسسة التميمي للبحث العلمي، زغوان، ١٩٩٨م، ص١٣١.

(٦٥) عبداللطيف الشادلي، الحركة العياشية، ص٢٢.

(٦٦) الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p.468)؛ دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٨.

(٦٧) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٩.

لأحد الانتصار عليهم. وبدأ الجميع يتحدث عن كراماته وقدسيته(٦٨).

لا شك في أن ابن أبي مَحَلِّي كان يسعى جاهدًا لرسوخ مثل هذه الاعتقادات في أذهان أصحابه؛ لأن ذلك من شأنه أن يزيدهم تعلقًا به وإيمانًا بأنه يريد الإصلاح. من غير أن يدركوا بعد أنه قد اتخذ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة وذريعة للوصول إلى غاية في نفسه. إن ما يشاع من أن ابن أبي مَحَلِّي حينما حج وطاف بالبيت قد دعا ربه أن يرزقه دولة، وما يتردد من إشاعته عن نفسه أنه المهدي، وما صاحب هذه الإشاعات من تزايد في أوساط أتباعه ومريديه، وبث الأخبار عن كراماته وخوارقه التي أوحت بأن رصاص أعدائهم لا يصيبهم، وأنه يقع عليهم باردًا. كل هذه الأقاويل توحي بأن الرجل قد استغل الظروف التي كانت تمر بها الدولة السعدية بعد وفاة المنصور، المتمثلة في فراغ السلطة وخاصة في المناطق الجنوبية التي كان ابن أبي محلي في السابق يعمل فيها مستشارًا للمنصور، وأنه قد طمع في الحصول على السلطة متسلحًا بتلك الجموع التي وفدت عليه وانساقت وراءه.

أما ما يقال بأن الدافع لحركة ابن أبي مَحَلِّي هو أداء الواجب الديني، وليس حب الملك والرئاسة، والواجب الديني عند ابن أبي مَحَلِّي هو جهاد النصارى أو العمل على جمع شتات المسلمين وتوجيههم توجيهًا سليمًا في الميدان الروحي

---

(٦٨) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٨.

بعد أن رأى تقصيرًا واضحًا من أبناء المنصور السعدي في مسألة الأخلاق والخروج عن الفضيلة(٦٩). فنحن لا نرى صحة هذا التفسير في قضية ابن أبي مَحَلِّي. فهو لم يتوجه إلى جهاد النصارى بل جاهد (حارب) إخوانه المسلمين. وقد اعترف بنفسه بخطئه حينما قال: "رمنا إصلاح الدين فأفسدناه"؛ مما يدل على أنه قد استغل ضعف السعديين وطمع في السلطة.

لقد اتخذ ابن أبي مَحَلِّي مسألة الحسبة مطية لتحقيق مآرب سياسية يريد الوصول إليها. إن ادعاءه المهدوية وترديده مقولة: إنه سلطان وتشويه سمعة زيدان والادعاء بأنه يرتكب أبشع المنكرات، بل والحكم عليه بأنه مقترف للكبائر ، هي وسائل أراد ابن أبي مَحَلِّي من ورائها اجتذاب قلوب العامة نحوه ليصل إلى مراده وهو السلطة، ويؤكد هذا التوجه عنده ما ذكر عن أمنيته حين طاف بالبيت في حجته، أن يمنحه الله دولة.

وتؤكد المصادر المغربية قريبة المعاصرة لأحداث ابن أبي مَحَلِّي أنه كان يريد السلطة، لا الإصلاح الذي اتخذه مطية. فالإفراني (ت بعد ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م) يذكر أنه: "حينما دخل مراكش رزق بولد فسماه زيدان، ودبت في رأسه نشوة الملك، ونسي ما بنى عليه أمره من التقوى والنسك"(٧٠). واليوسي (ت ١١٠٢هـ/ ١٦٩١م) يشير إلى أنه حينما دخل مراكش قدم

---

(٦٩) إبراهيم حركات: المغرب، ٢/٢٩٨.

(٧٠) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٧.

عليه إخوانه من الفقراء يهنئونه ويفرحون له بما حاز من الملك وفيهم رجل ساكت لا يتكلم، فقال: ما شأنك لا تتكلم؟ وألح عليه في الكلام. فقال الرجل: "أنت اليوم سلطان فإن أمنتني على أن أقول الحق قلته. فقال له: أنت آمن فقل. فقال: إن الكرة التي يلعب بها يتبعها المائتان وأكثر من خلفها، وينكسر الناس وينجرحون وقد يموتون، ويكثر الصياح والهول، فإذا فتشت لم توجد إلا شراويط أي خرقًا بالية ملفوفة. فلما سمع ابن أبي مَحَلِّي هذا المثال وفهمه بكى، وقال: رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه"(٧١).

اتخذ ابن أبي مَحَلِّي مراكش قاعدة له وأقر الأمن فيها وعين عليها قائدًا له يسمى الحكم، وكلفه بالسهر على راحة الناس وأمنهم، كما اهتم بالقضاء فعين قاضيًا ونصحه بالعدل بين الناس، وأخذ بجمع الضرائب من القبائل. ثم بدأ يعد العدة لملاحقة زيدان الملتجئ في أسفي مع بعض قادته وحريمه. وكان زيدان قد بدأ ينظم قواته في أسفي استعدادًا لخوض معركة جديدة مع خصمه. وقد وفدت عليه جموع من الأعراب فأكرمهم وكساهم لكنهم تخلوا عنه بعد ذلك. وقد حاول زيدان من أسفي إصلاح ما بينه وبين أخيه المأمون ونسيان خلافاتهما، لكن ابن أبي مَحَلِّي لم يمهله للاستفادة من هذا الصلح مع أخيه، حيث تحرك نحوه وبدأ يقترب من أسفي، مجبرًا زيدان على أن يستأجر سفينة من مرسيليا كانت ترسو في الميناء ليبحر بحريمه وأمتعته

---

(٧١) اليوسي: المحاضرات، ص١٠٦-١٠٧.

وأتباعه جنوبًا نحو سانتاكروز، ومنها توجه إلى السوس، ثم إلى تارودانت(٧٢).

لما علم ابن أبي مَحَلِّي بهروب زيدان من أسفي أقام مخيمه بالقرب منها وكان يرافقه القائد عزوز وهو من أشهر قادته ومستشاريه، وقدم إليه شيوخ الأعراب فطلب منهم جمع الجبايات من قبائلهم، والعفو عما كان منهم مع سلفه زيدان، وأخبرهم بأن الله قد بعثه إليهم من أجل إقرار الأمن ونشر الدين الإسلامي الذي تداعت أركانه بسبب تخاذل زيدان وأنصاره. وأن الله بعثه لمحاربة المسيحيين الذين احتلوا مدن الأندلس، ويطلب من الجميع مساندته لأنه مرسل من الله إليهم، وسيحقق لهم نصرًا في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا. أما الإنجليز فهم أصدقاء ينبغي معاملتهم بود وصداقة. وقد أذعن الجميع لطاعته وخدمته، لاسيما بعد أن أرسل رجاله لاحتلال أسفي، التي سلمت له(٧٣).

بدأ زيدان من مستقره في تارودانت يثير المشاكل في وجه ابن أبي مَحَلِّي، وخاصة في العاصمة مراكش التي نجح زيدان في إثارة تمرد عرب الشبانات فيها ضد ابن أبي مَحَلِّي، فتحالفوا مع بعض قبائل البربر المقيمين في الجبال حولها وأعلنوا الثورة عليه. لهذا قرر ابن أبي مَحَلِّي العودة

---

(٧٢) الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p.468)؛ دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٥٩-١٦٠؛ عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي... ورحلته، ص٦٧.

(٧٣) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٦١؛ الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, pp.469- 470).

من أسفي مباشرة إلى مراكش. يقول دي هنين: "كنت معه فاستدعاني وطلب مني المشورة في الطريقة السليمة لاستعادة مراكش. وقد أشرت عليه باستعمال الأنابيب المحشوة بالبارود، التي ألقيت على المحاصرين في القصبة، فخافوا وفروا عنها ودخلها ابن أبي محلي من جديد"(٧٤). ويؤكد R. S هذه الأنباء، ويشير إلى أن أنصار زيدان من الشبانات قد حاصروا مراكش وأقنعوا بعض القبائل البربرية بالانضمام إليهم. كما أن الأعراب الذين كانوا ملتفين حول ابن أبي مَحَلِّي قد بدأوا في التخلي عنه(٧٥).

لم يكتف زيدان بإثارة المشاكل في وجه ابن أبي مَحَلِّي في العاصمة مراكش فقط، بل سعى إلى تحريض قائد أسفي على التمرد والثورة على ابن أبي مَحَلِّي، فازدادت الاضطرابات على هذا الأخير، يقول دي هنين: "عند ذلك طلبت منه الإذن بالسماح لي بمغادرة البلاد فأذن لي، فكانت مغادرتي في ٢٨ نوفمبر ١٦١٢م (٥ شوال ١٠٢١هـ). وقد علمت فيما بعد بأن زيدان قد خاض ضد ابن أبي مَحَلِّي خمس معارك أخرى انهزم فيها كلها، وانسحب إلى بعض الجبال بعد أن كسرت رجله"(٧٦).

لقد بدأ أنصار ابن أبي مَحَلِّي يفقدون ثقتهم فيه كقائد ملهم صاحب كرامات ومعجزات وخوارق. فابن أبي مَحَلِّي أراد تتبع فلول عرب الشبانات وحلفائهم من البربر بعد

---

(٧٤) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٦٧.

(٧٥) الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, p.471).

(٧٦) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٦٩.

التجائهم إلى بعض الجبال. وكان جنوده لا يزالون يعتقدون بأن كراماته ستحول بينهم وبين أن ينال منهم عدوهم، لكنهم فوجئوا بوابل من الرصاص ينهال عليهم حيث قتل منهم ثمانمئة، فيهم بعض القادة المشهورين. فتبين لأنصاره أن المعجزات التي كان يدعيها ما هي إلا مكر وخداع. ومن شدة غيظه على ما حل بجيشه فقد أمر بقطع ستين ألف شجرة زيتون كانت في مزارع هؤلاء البربر في سفوح الجبال، ومن ثم بدأ أصحابه وخاصة الصحراويين منهم يتركونه ويرحلون عنه، على الرغم من كل الإغراءات التي قدمها لهم، بحيث لم يبق معه إلا القليل، وخاصة الذين يعتقدون أنه لا يزال قادرًا على العبور بهم مضيق جبل طارق لاسترداد الأندلس(٧٧).

لقد أكدت مصادر أخرى تخلي أصحاب ابن أبي مَحَلِّي عنه، وخاصة القادة المشهورين معه والفرسان، والهروب الجماعي من محلته، وعودة هؤلاء الهاربين إلى ديارهم وقبائلهم، لذلك توقعت تلك المصادر العودة القريبة لزيدان إلى عاصمته مراكش، خاصة بعد الفوضى التي أحدثها في صفوف أنصار ابن أبي مَحَلِّي. هذا ما توقعه G. B في تقريره المرسل إلى جون هاريسون، والمؤرخ في ٢٠ سبتمبر ١٦١٢م (٢٧ شوال ١٠٢١هـ) والمكتوب في أسفي. على الرغم من أن ابن أبي مَحَلِّي ظل محتفظًا بمراكش أكثر من أربعة عشر شهرًا بعد هذا التقرير(٧٨).

---

(٧٧) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٦٨-١٦٩.

(٧٨) الوثيقة رقم CXXXII في: (S. I. H. M. D. S., T. II, pp.475- 476).

نهاية ثورة ابن أبي مَحَلِّي:

كان لابن أبي مَحَلِّي معارضون كثر، وخصوصًا من أصحاب العلم والولاية. فأبوبكر الدلائي لم يكن موافقًا له في تصرفاته، وخصوصًا فيما يتعلق بمسألة الحسبة في وقت شاعت فيه المنكرات، فأراد ابن أبي مَحَلِّي القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعا أبا بكر الدلائي إلى مشاركته في ذلك، فلم يوافقه "لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر، وقال له: إن شروط تغيير المنكر لم تتوفر"(٧٩).

وقد تمادى ابن أبي مَحَلِّي في الاندفاع لتحقيق أغراضه السياسية ممتطيًا صهوة أمر الحسبة لدرجة أنه كان يقول لأصحابه محرضًا لهم على نصرته: "أنتم أفضل من أصحاب النبي ﷺ؛ لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل وهم قاموا به في زمان الحق"(٨٠).

وممن عارضه في ذلك أشد المعارضة الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبدالله الحاحي (ت ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م)، المقيم في زاويته بجبل درن، الذي أخذ يحذر من أفعال ابن أبي مَحَلِّي ويسخر منه، وعرّض به في بعض قصائده، ومنها:

يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم
فيمن مضى أسوة من سائر العلما

---

(٧٩) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٤؛ اليوسي: المحاضرات، ص١٠٦.

(٨٠) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٥؛ الناصري: الاستقصا، ٢٩/٦.

إن قــيل للناس إن الهــرج يوبقكم
قــالوا الفـقـيـه فـلان قـبلنا حـرمـا
ومن يقل قـال خيـر الخلق قـيل لـه
ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما
ونحن أفضل من صحب الرسول لنا
أجرًا يضـاعف فـي اجـبـارنا نظمـا
وزخـرفـوا نزهـات الحـال فـانفعلت
لـه قلوب عــوام رشـــدهـا عــدمــا

وقد وقعت بعد ذلك بينه وبين الحاحي مراسلات ومهاجاة نظمًا ونثرًا.

ويقول الإفراني إن السخرية والاستهزاء قد اشتدا بين الاثنين إلى الدرجة التي ينزه كتابه عن تسطيرها(٨١).

كان ليحيى بن عبدالله الحاحي شهرة واسعة في إقليم السوس بجنوب المغرب، ولما وقع ما وقع بينه وبين ابن أبي مَحَلِّي من تراشق ومناوشات شعرًا ونثرًا، وجد زيدان، الذي فشل في مواجهاته لابن أبي مَحَلِّي وتحقق من ضعفه عن مقاومة خصمه، في ذلك فرصة ثمينة لتحريض الحاحي ضد ابن أبي مَحَلِّي، فبعث زيدان إليه مستصرخًا ومستنجدًا، ويقال بأنه ذهب إليه وقال له: "إن بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم أن تذبوا عني وتقاتلوا معي من ناوأني، فلبى أبو

---

(٨١) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٥-٢٠٦.

زكرياء نداءه وأغاثه، فحشد الجيوش من كل فج وجمع الجموع من كل صوب، وخرج يريد مراكش في ثامن رمضان عام ١٠٢٢هـ"(٨٢).

لما اقترب الحاحي بجيوشه من مراكش، وبلغ موضعًا يعرف باسم فم تانوت، كتب إليه ابن أبي مَحَلِّي: "بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن عبدالله إلى يحيى بن عبدالله، بلغني بأنك جندت وبندت وفي تانوت نزلت، اهبط للوطا لينكشف بيني وبينك الغطا، فالذئب ختال والأسد صوّال، ولا تستقيم الأيام إلا بضرب القنا وقطع الحسام، والسلام".

فأجابه الحاحي بما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم من يحيى بن عبدالله إلى أحمد بن عبدالله، أما بعد فليست الأيام لا لي ولا لك، إنما هي للملك العلام. وقد أتيتك بأهل البنادق والأحرار من الشبانة ومن انتمى إليهم من بني جرار، وأهل الشرور والبؤس من هشتوكة إلى بني كنسوس، فالوعد بيني وبينك جيليز، هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزيز، والسلام"(٨٣).

وجيليز هو جبل مطل على مراكش، زحف يحيى الحاحي بجيوشه نحوه، فخرج ابن أبي مَحَلِّي لملاقاته، فوقعت المعركة الفاصلة بينهما هنالك، فكانت أول رصاصة في نحر ابن أبي مَحَلِّي، فمات مكانه، وتفرقت جموعه وهربوا ونهبت محلته،

---

(٨٢) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٨؛ الناصري: الاستقصا، ٣٢/٦.

(٨٣) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٨؛ الناصري: الاستقصا، ٣٢/٦.

وقد رمز بعضهم إلى حركته قائلاً: "قام طيشًا ومات كبشًا"(٨٤). أي أنه قام عام ١٠١٩هـ ومات عام ١٠٢٢هـ في حساب الجمَّل.

وهكذا عاد زيدان إلى دار ملكه، بعد غيبة استمرت نحو ثلاث سنوات، حيث تذكر بعض المصادر الأجنبية أن معركة جبل جيليز كانت في ٣٠ نوفمبر ١٦١٣م (١٨ شوال ١٠٢٢هـ)(٨٥).

وليس صحيحًا ما ذكره دي هنين، حينما أشار إلى أنه سمع بعد رحيله عن المغرب، بأن ابن أبي مَحَلِّي قد قتل في ٢٦ أكتوبر ١٦١٢م (١٣ رمضان ١٠٢٢هـ)، وأن مدة حكمه كانت تسعة عشر شهرًا وثلاثة أيام(٨٦)؛ لأننا إذا أخذنا سقوط العرائش في ١٠١٩/٩/٤هـ الموافق ١٦١٠/١١/٢٠م، بداية لثورته فإن وفاته إما في رمضان أو بعده بقليل من عام ١٠٢٢هـ، وبذلك تكون مدة ثورته نحو ثلاث سنوات.

ويبدو في النهاية أن ابن أبي محلي قد فشل في ثورته التي ادعى فيها الإصلاح والخروج على السلطة الشرعية، لأنه ربما ظن أن ما حل بالبلاد من ضعف واستعمار، ناتج عن غيبة الحق وطغيان الظلم، وأن المجتمع لا بد أن يكون كمجتمع عصر النبوة لكي ينهض من كبوته(٨٧).

---

(٨٤) الإفراني: نزهة الحادي، ص٢٠٩. (ويذكر أنه احتز رأسه وعلق على أسوار مراكش مع مجموعة من أصحابه لمدة اثني عشر عامًا).

(85) S. I. H. M. D. S., T. II, p.476.

(٨٦) دي هنين: وصف الممالك المغربية، ص١٧١.

(٨٧) عبدالمجيد القدوري: ابن أبي محلي. نموذج...، ص٢٩٦.

لكن الأمر الذي ينبغي عدم إغفاله هو أن ابن أبي مَحَلِّي لم يكن مخلصًا في مسألة عودة الحق إلى نصابه، ومن ثم لم يوجه سهامه نحو أعداء البلاد الحقيقيين، وإنما صوبها نحو إخوانه ونحو السلطة؛ ليستقر له الأمر ويحقق الحلم بإقامة الدولة التي كان يتمناها، لكنه لم يهنأ بها.

الخاتمة:

استند ابن أبي مَحَلِّي في ثورته ضد السلطان زيدان بن المنصور السعدي على مقومات هشة لم تستطع الثبات عندما بدأت تتكشف الحقائق. فدعوته قامت على الادعاء بتغيير المنكر وإقرار المعروف وإنصاف المظلوم وإقامة العدل في الأرض التي يدعي ابن أبي مَحَلِّي أنها ملئت ظلمًا وجورًا. كما استندت دعوته إلى مسألة المهدوية التي أقنع أصحابه بأنه مختار من الله عن طريق رؤياه للرسول الذي بشر بظهوره، كما اعتمد على مسألة الكرامات والمعجزات والخوارق. وكل تلك المقومات التي اتكأت عليها ثورته لم تثبت في ميدان الامتحان الحقيقي، وبدأت تتكشف حقيقته وتبين لمناصريه أنه ليس سوى طالب سلطة دنيوية، ولم يكن يريد الجهاد ولا الدفاع عن حرمة الوطن؛ لذلك تفرق عنه أصحابه وتركوه يواجه مصيره المحتوم أمام خصومه حين عرفوا تمامًا حقيقته، خاصة لما لم يفعل أي شيء يذكر في مسألة العرائش التي كانت الذريعة الواضحة في ثورته.

إن ثورة ابن أبي مَحَلِّي كانت تخفي وراءها أهدافًا غير معلنة، حيث كان صاحبها يسعى للحصول على السلطة

والملك، ممتطيًا في سبيل تحقيق هذه الغاية صهوة الدين، واصمًا منافسيه بالفساد والظلم وتشويه السمعة، من أجل تضليل أنصاره بأن ما سعى إليه لا يعتبر خروجًا في المفهوم الشرعي على السلطة الشرعية، وإنما كان ذلك في سبيل الإصلاح.

دراسة لآثار
موقع عكاظ

تأليف

د. خليل بن إبراهيم المعيقل

١١٢ صفحة

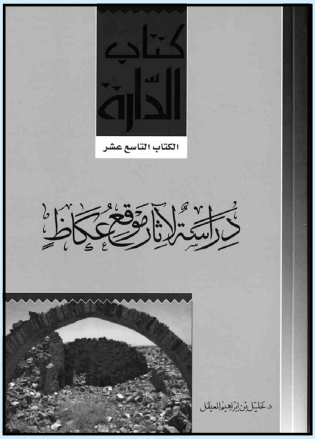
كتاب الدارة

الكتاب التاسع عشر

دراسة لآثار موقع عكاظ

د. خليل بن إبراهيم المعيقل

يصف هذا الكتاب موقع سوق عكاظ أعظم أسواق العرب في الجاهلية، وقد كان مكانًا تلتقي فيه القبائل من مختلف أنحاء الجزيرة العربية للتجارة وعقد الندوات الأدبية، ويعد معلمًا أثريًا تاريخيًا يقع شرق منطقة الطائف، ويتكون من عدة جوانب، كالقصر الذي يعد أهم المعالم البارزة في الموقع، إضافة إلي الأسوار الحجرية المرتبطة بالقصر من ثلاث جهات، ومجموعة من التلال الأثرية الصغيرة المنتشرة، وكذا المقبرة والأسوار الحجرية القريبة من القصر.

ويعد الكتاب أحد الدراسات الأثرية التاريخية التي تجلي جانبًا من الجوانب الحضارية من الجزيرة العربية عمومًا والمملكة العربية السعودية خصوصًا.

إصدارات دارة الملك عبدالعزيز

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد إلكتروني info@darah.org.sa